المحكي التاريخي والتخييلي في رواية الطوفان لعبد المالك مرتاض

الأستاذة سامية يحياوي – جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة – الجزائر

توطئة :

شغل توظيف التاريخ مساحة ثرية من جغرافيا الأدب العربي، وترك بصمته واضحة في المخيال الروائي الجزائري، إذ انطلق المبدع من صميم مجتمعه ليكتب قصاصات جريئة عن جزائره الحبلى بذكريات أمس – شاهدا أو راويا أو متخيلا – من أجل توصيل فكرة الثورة وبعث ثقافة المقاومة في الأجيال القادمة بما يوائم فلسفة تفكيره وأيديولوجيته.

يعتبر توظيف التاريخ في الرواية الجزائرية من الظواهر الفنية الملفتة للانتباه، إذ بدا التوظيف في البداية باهتا مباشرا، نقل الواقع كما هو معتمدا على بوح الذاكرة، ومن ذلك نذكر ثلاثية محمد ديب وبعض أعمال الطاهر وطار مثل اللاز و تجربة في العشق والموت. ثم بدأت لمسة التجديد تلامس النصوص الروائية، فاستلهم التاريخ كمتخيّل أراد من خلاله الروائي أن يعالج قضايا الواقع ومشكلات الإنسان بالمزج بين التاريخي والجمالي –بطريقة مباشرة أو غير مباشرة– وتجلى ذلك في روايات الأزمة أو ما يسمى بالأدب الاستعجالي ومن ذلك روايات واسيني الأعرج وعبد المالك مرتاض.

يعدّ عبد المالك مرتاض من الروائيين الذين أجادوا توظيف التاريخ في رواياتهم، لأنه قبل أن يكون روائيا كان قارئا جيّدا للتاريخ، وبما أنّ الرواية هي تاريخ متخيّل داخل الواقع الموضوعي فقد أعاد مرتاض استثمار التاريخ لينتج نصوصا تاريخية ضمن حركة تزاوج بين الواقع والمتخيّل. وقد اعتمد في ثلاثية الجزائر* على تصوير الحدث كما هو ثم تأثيث فراغات لم تضئها كتب التاريخ ، فبقيت مبهمة تحتاج إلى توضيح يقول:"إنّ التخييل يملأ الفراغ الذي

سكت التاريخ عنه"(1) لجأ مرتاض إلى التاريخ من باب استعراض مواقف حاسمة من التاريخ، أراد من خلالها تعرية الواقع الاستعماري للجزائر فترة الاستعمار، وبعث هذه الحقائق الملفوفة بالبطولات إلى الجيل الجديد (الأبناء).وقد حدّد الزمن الداخلي للنص في فترة امتدت من 1830-1945 وزمن خارجي تخييلي امتد على طول خمس ليال –زمن الحكي- وتعدّ الرواية مفعمة بتقنيات سردية تراوحت بين سرد واقعي تاريخي من جهة، واحتوت على سرد خيالي روائي من جهة أخرى. وعليه كيف استثمر عبد المالك مرتاض التاريخ؟ ولماذا استلهمه بهذه الطريقة؟

ملخص الرواية :

صدرت رواية الطوفان، رواية عشق الوطن واللغة لعبد المالك مرتاض عن دار هومة عام 2010، وتضم 367 صفحة توزعت على خمسة فصول، مثّل لكل فصل بليلة من الحكي، وتعدّ رواية الطوفان الجزء الثاني من ثلاثية الجزائر التي تكوّنت من" الملحمة – الطوفان- والخلاص-"

تدور أحداث رواية الطوفان حول حلقات شبابية كانت تعقد تحت شجرة الدردارة، هذه الشجرة المباركة التي تؤرّخ لمبايعة الأمير عبد القادر. ويحدث في إحدى الليالي الصيفية القائظة أن تنضم إلى الحلقة امرأة عجائبية من نور تدعى أمّ زينب، لتتبوأ مركزا مشرّفا ومهما في الحلقة بعد جدل دار بين أفرادها.تشرع الحاكية أم زينب في سرد وقائع من تاريخ الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام1830 حتى مجازر 08 ماي1945 مركزة على الثورات الشعبية ومقاومة الأمير عبد القادر و لالا فاطمة نسومر وذلك على طول خمس ليال تخللتها وقفات وحوارات جادة تنم عن وعي من الشباب بتاريخ بلادهم وحيرتهم وتفاجئهم بأخبار أخرى لم تضئها كتب التاريخ .

1- رمزية العنوان:

يعد الطوفان ظاهرة طبيعية عنيفة ارتبطت في جلّ الديانات بالعقاب والتطهير. وتميّز طوفان مرتاض عن هذا المعنى "حكاية طوفان الدماء، وهي التي كان أبطالها أساسا المقاومون من أبائكم الأكرمين، أما شخصياتها فكانت من مرتزقة الكائن الغريب العنيد"(2) يحمل العنوان دلالة عميقة تحيل إلى طوفان الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي أغرق الجزائر في الدماء وفي ويلات الظلم والاستعباد هذا من جهة كما حمل العنوان رمزية إيجابية على لسان الحاكية أم زينب فكانت قصة طوفان ولّد الوعي والشعور بالمأساة والظلم هذا الوعي الذي جلب الطوفان الذي تمخضت عنه الثورة التي أنجبت الاستقلال فيما بعد.

2-الحاكية أمّ زينب/استرجاع وتداعي:

لم يتكلم الكاتب بصوته وإنّما فوّض راويا تخييليا أخذ على عاتقه عملية القص متوجها إلى مستمع تخييلي يقابله. وتوحي الأم زينب بالكثير من الدلالات فهي قناع تخفّى من ورائه السارد ليطرح أفكاره بحرية.فينطقها بما يريد قصد تمرير خطاب رامز.فأم زينب ليست في الحقيقة سوى أنا الكاتب الثانية أو الكاتب الضمني الذي استعان به في توصيل صوته"حيث كان يروي بلهجة المتكلم متخذا لسان أحد الرواة الأساسيين في روايته الذي يتحمل مسؤولية نقل الحدث الروائي التاريخي في سلم أحداث تصاعدية"(3).تظهر الحاكية أم زينب على أنّها مخلوق عجائبي من نور إذ تؤكد كلّ القرائن الوصفية أنّها ليست إلاّ انعكاسا للجزائر في أسمى تجلياتها، إنّها الوطن الشاهد الوحيد القادر على سرد وقائع حقيقية بكلّ هذه الدقة والصدق والوضوح والأمانة. كأنّ أم زينب هنا هي امتداد لزينب بطلة رواية عبد المالك مرتاض صوت الكهف" حيث تصير زينب وطنا (الجزائر)وعقدها

المضيء هويتها عبر التاريخ المليء بالمقاومات وصوت نداء الوطن"(4). قامت الحاكية برحلة في الذاكرة وهي رحلة تقوم على التداعي وعلى تقنية الاسترجاع.حيث نقلت أحداثا تاريخية مرتبة ترتيبا زمنيا وفق نسق خطي متواصل وتوالد استرسالي تخللته أحيانا بعض الوقفات الفجائية نتيجة تفاعل مع الحدث بالبكاء أو التعب لكثرة المسرود وتفرع أحداثه وتفاصيله وأسئلة الفتيان الملحة والمستفزة لذاكرة المرأة.

3-المحكي التاريخي في رواية الطوفان:

رصد الكاتب في روايته مراحل احتلال فرنسا للجزائر وفق محاور كبرى. وطرح إحداثياتها المختلفة على طول النسيج السردي، بلغة كلاسيكية راقية أصيلة وأسلوب خبري جذاب صاحبه توالدا سرديا للقصص داخل المتن الحكائي.

أ-الليلة الأولى: استذكار وبكاء"

"الأدب في حقيقته ليس انعكاسا للعملية الاجتماعية لكنّه جوهر التاريخ بأكمله وخلاصته وموجزه"(5)

أراد مرتاض في الاستهلال الروائي أن يحرك ضمائرنا وأن يحرّك مشاعر الوطنية لذا الشباب وأن يوقظ حبهم لوطنهم ويجدّد إيمانهم الكبير به من خلال استذكارات لماض مظلم قاتم مرّت به الجزائر تحت نير اغتصاب الحرية من جهة وأشاد بماض تليد لأجدادنا الذين دافعوا عن قضيتهم و احتضنوها ليستعيدوا باستقلالهم وطنهم وجنّتهم وهويتهم.

1-أسطرة المكان والتاريخ:

افتتح مرتاض الفصل الأول من روايته بمشهد ينم عن التآلف والاجتماع والثقافة والوفاء بين أحفاد الأمير عبد القادر يقول" اعتاد فتيان مدينة أم العساكر الخضراء، على عقد جلسات للسمر تحت شجرة الدردارة، طوال الليالي الرطيبة أثناء كل صيف، فكانوا يتناشدون الأشعار الشعبية تحاكون الحكايات الخرافية كما كانوا في بعض الأطوار يتحاورون في مسائل العلم، وفي شؤون من التاريخ وفي أطراف من السير والأيام والأمثال- والسياسة والقرآن-، إن هذه العادة الثقافية نشأت منذ بيعة الأمير عبد القادر تحت شجرة الدردارة في التاريخ المشهود. وقيل إنّ الأمير نفسه هو الذي اتخذ ذلك المجلس ...قبيل البيعة المباركة...ولم يقع الإقلاع عن ذلك الدأب الثقافي إلاّ حين غزا الكائن الغريب العنيد أرض المحروسة المحمية البيضاء"(6) ورث الشباب هذه العادة الثقافية عن الأمير مؤسس الدولة الجزائرية العصرية، فكان الاجتماع بين مختلف الفئات لمناقشة قضايا فكرية وثقافية وعلمية وتاريخية وشعبية ودينية" وكان الاختلاف بينهم معين الخصب والثراء الفكري والحوار البناء" (7) .وتحيل شجرة الدردارة على دلالات دينية وأسطورية، أمّا الدينية فهي مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلّم تحت الشجرة،" ومنه فأصول هذا الاجتماع إسلامي .أما الجانب الأسطوري فيتجلى في أسطرة الشجرة وجعلها مكانا مقدسا للتلاقي، بل ولاستحضار الأرواح العجائبية .وترتبط الشجرة في الأساطير بالخصب والنماء والتواصل والعراقة والأصالة.

2-الحاكية أم زينب والتجلي العجائبي:

صاحب ظهور الحاكية أم زينب طقوس عجائبية، بدأت بانطفاء شعلة القنديل وحدوث عاصفة، فظهور المرأة واشتعال قنديلها مما بث رعبا وخوفا في

أحفاد الأمير ؟عكست الصورة الأولى لتجلي المرأة خوفا وتوحي هذه العلامات بالطقوس المصاحبة لنزول الوحي، فجبريل كان ملاكا يرتدي البياض وبثّ نزوله رعبا وهلعا في نفس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. فكأنّ الحكي الذي سترويه أم زينب هو نقل للحقيقة التي تتجلى في شكل وحي منزّل على أحفاد الأمير.

لم يطمئن الشباب لهذه المرأة النورانية نظرا لثراء المخيّلة الشعبية الجزائرية بقصص الأغوال والجنّ، ولكن سرعان ما أقنعتهم الأم زينب أنّها شاهد عيان على جرائم كان المستعمر بطلها مؤكدة للأحفاد أنّ سبب زيارتها لهم هو إفادتهم من تاريخ جزائرهم .

استأنس الأحفاد بعد شك وريب كبيرين بالأم زينب، وأسرّوا لها بوجود ثغرات واضحة في التاريخ عجزوا عن ملئها وتأثيثها وتأويلها "قرأنا التاريخ فلم يشف لنا غليلا، ولا كفانا سؤلا، فربما كان الاستماع إلى الحكي أحبّ إلينا من قراءة التاريخ"(8). فكان الوفاق بين الطرفين حول وجود بتر في التاريخ يحتاج إلى ملء وترميم.

3-جمالية الحكي/وترميم فراغات من ذاكرة التاريخ:

لأنّ " ذاكرة التاريخ كثيرا ما تنسى"(9)قرّر مرتاض بلسان الحاكية أم زينب أن يرمم بياضات سكت التاريخ عنها. فانطلق نسيج الحكي بلغة إخبارية حجاجية إقناعية وتقريرية بما يتوافق مع المرجعية التاريخية والواقعية للحدث. والمزج بين خطابين أحدهما يتحرك في دائرة التعبير المنطقي الواقعي والآخر يدور في دائرة المتخيل الذي يجعل من السرد التاريخي للأحداث سردا أدبيا ليعري واقع تسليم

الجزائر من طرف أبنائها إلى سبعة وثلاثين ألف مرتزق خرّبوا الجزائر بعد ثلاثة أيام من احتلالها فكانت مجازر الحمامات وأشهرها مجزرة حمام القصبة الذي انتهكت فيه حرمات النساء وسلب حليهن وجواهرهن عنوة بالقطع ثم عرضها للبيع في الأسواق وهي تقطر دما وكلّها تفاصيل " تغافل التاريخ عنها إلى حد التآمر بالسكوت في بعض أطواره"(10). وانتهى المشهد ببكاء وعويل نساء أم العساكر الخضراء الذي سمع على بعد مسافات.ودعت الحاكية إلى إقامة مأتم بكائي كلّ يوم من العام ذكرى لبشاعة الاحتلال وترسيخ للوطنية. ثم اختفت الأم زينب مع صياح الديكة. وهنا نلاحظ توظيف مرتاض لتقنيات السرد العربي في كتاب ألف ليلة وليلة، فأم زينب هنا هي شهرزاد عروس الليالي وزينتها.كما كان الحكي على امتداد الليالي مصحوبا بفقرات تدعيمية من كتب التاريخ تؤكد واقعية الحوادث ومن ذلك كتاب المرآة" مذكرات حمدان خوجة الذي يمثّل شاهد عيان عن فظاعة الاستعمار، وكتب أبو القاسم سعد الله ومبارك الميلي ومحمد بن عبد الله الجزائري، ومحمد كرد علي وعبد المالك مرتاض"المؤلف" ومؤرخين فرنسيين مثل المؤرخBichon ونابليون بونابارت وهذا يؤكد أنّ الرواية التاريخية تبدأ من حيث ينتهي التاريخ وأنّ التاريخ هو العمود الفقري لهذه الرواية.

ب–الليلة الثانية: تدفّق الطوفان وارتجالية المقاومة:

أثارت أم زينب أسباب احتلال فرنسا للجزائر مع الشباب فتقاطعت مع كتب التاريخ في أسباب وانفردت بنقل أسباب جهلها التاريخ أم تناساها. كما أشارت الحاكية إلى البدايات الأولى للمقاومات الشعبية.

1–لالا فاطمة نسومر المرأة الأسطورة:

استحضرت الرواية العديد من الشخصيات المعروفة تاريخيا ومن ذلك شخصية فاطمة نسومر " المرأة التي كتبت التاريخ بدمها...لكن التاريخ قد أصيب بخرس عن موقف لالا فاطمة نسومر ورجالها"(11). قاومت عذراء الجبل المستعمر مدّة سبع سنوات في منطقة القبائل حتى شبهها نوفيل باربون N- Barbon بالمرأة الأسطورة جان دارك. وتروي كتب التاريخ استسلامها للمحتل إلاّ أنّ الرواية صحّحت بالتأكيد على أصابتها بشلل مفاجئ سهّل عملية القبض عليها وسجنها.

ج-الليلة الثالثة: المؤامرة والنوايا الحسنة:

أرجعت الحاكية أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 إلى تسرب جواسيس في عضد الدولة الجزائرية، جاؤوا في شكل بعثات طلابية بغرض الدراسة في المدرسة الثعالبية ، إضافة إلى دور اليهود حساس والخطير في احتكار التجارة الخارجية ومن هؤلاء نذكر يعقوب كوهين وميخائيل أبو زنار. إضافة إلى مشكلة الديون وضعف شخصية والداي حسين، وانطلاء مؤامرة الخزناجي وابنته عليه(راجع التفاصيل في الرواية)وجريه وراء المال وتعيينه لليهودي بكري على رأس الخزينة" لقد كان المجتمع الجزائري مجتمعا متعدد الاثنيات يعيشون دون تعصب أو عنصرية بل بتحاب وتآخ فقد كان الأمازيغ والبربر وزنوج إفريقيا واليهود يعيشون في مجتمع واحد. غير أنّ اليهود لم ينهضوا بكلّ واجباتهم إزاء الوطن الذي آواهم (12). إضافة إلى تستر فرنسا وراء شعار حماية الجزائر وتخليص شعبها من ديكتاتورية الأتراك وحكمهم الجائر.تضافرت كلّ هذه الأسباب لتكون فسحة لدخول أسطول الاحتلال إلى الجزائر عبر شاطئ سيدي فرج الذي شهد ثلاث ليال عاصفة كانت لولا الدسيسة والبلادة من طرف حسين باشا وصهره قوى طبيعية

مسخرة من الله تعالى لنصرة الوطن الجزائر" فقد يكون التاريخ ملوما وهو ليس مليما،إذ لا ذنب له فيما روى، فهو لا يعدو أن يحاول تسجيل الوقائع وسردها كما وقعت، أو كما يروى له، بحق أو بباطل، وإنّما وقعت فعلا.سرعان ما بدأت ثورات شعبية ارتجالية متلاحقة أولها ثورة الحاج بن علي السعدي في منطقة القبائل وهو "أحد الرجال الذين أهمل التاريخ ذكرهم فأهملهم إهمالا"(13). وأتى بعده محي الذين الحسني ثم ابنه الأمير عبد القادر أما في الشرق فأحمد باي في حين استسلمت عنابة.

حقق الأمير عبد القادر انتصارات كبرى متكررة على طول سبعة عشرة عاما، فصّلها مرتاض في روايته وذكر أهم خصاله كقائد وكزوج وخلّد أهم انجازاته إلاّ أنّ الراوية تقر بوجود" الكثير من الفراغ في تاريخ المقاومة العظيمة لم نستطع ملأه، لأنّ التاريخ لم يفصل القول فيها، فكان علينا شحيحا، فظلّت بعض الأمور لغزا محيّرا لاريب أنّ هناك أعذارا موضوعية"(14).نستنتج أنّ الرواية التاريخية تحاول ملء الفراغ الباني من خلال سلطة الحكي (الاسترجاع) وجمالية المتخيّل.

د–الليلة الرابعة: مناجاة المـــاء/ خصب وتحرر وولادة:

افتتحت شهرزاد ليلتها بمناجاة دارت بين الأمير عبد القادر والماء، إذ توحّد الأمير بالموجود (الماء) بعد أن حوصر من طرف العدو، فلم يجد إلاّ الماء فضاء خصبا لبث مناجاته فهو الكائن الوحيد الحاضر والقادر على التخفيف من ألمه، سمحت خصائص الماء الرمزية بتمرير خطاب مواس للرجل فهو يحمل دلالة الصمت الايجابي وسمة الإصغاء الحكيم إضافة إلى دلالات الخصب والتجدد

والولادة والبعث من جديد بل والتفاؤل بغد جديد. تشخص الماء إنسانا ودخل في حوار طويل مع الأمير يواسيه ويخفف من وحدته وألمه.

تسارعت لقطات الذاكرة لدى الحاكية لتكشف عن كلّ ما هو مستور ومتعلق بهذه الحقبة، وكأن الحاكية أرادت أن تدرأ الملل عن القارئ لتكون هذه المناجاة عودة للرواية ورمزيتها ولتكون بمثابة الوقفة بعد تسارع السرد حتى لا يملّ القارئ ولا ينسى انه بصدد مطالعة رواية أدبية.

هـــ –الليلة الخامسة: الصحوة والانبعاث من جديد:

عانى الشعب الجزائري من الفقر والظلم والتهميش، والعمل في حقول الاستعمار الغاشم دون مقابل وتروي الحاكية قصة حليمة المسكينة وأطفالها وهي واحدة يستطيع مخيال كلّ واحد منّا استحضار العديد من الوقائع المشابهة. تواصلت المقاومات الشعبية فكانت ثورة المقراني والشيخ الحداد وكلّها لم تنجح لسوء التنظيم ونقص الخبرة وضعف التجهيزات والأسلحة وكلّ هذه الثورات كانت الفتيل الذي ولّد الوعي بضرورة الصمود والثورة فكانت مجازر الثامن ماي 1945 أعظم مذبحة كوّنت فيها دماء ثمانين ألفا من الجزائريين طوفانا أغرق المغتصب فكان الخلاص.ودّعت الأم زينب فتيانها على أمل اللقاء بهم في زمن آخر ومكان آخر لتحكي لهم حكاية الخلاص تاركة وراءها حيرة وأسئلة كثيرة.

خاتمة :

نخلص في الأخير أنّ الرواية التاريخية "رواية التاريخ أداتها وغطاؤها ولكن أهدافا بعيدة هي مبتغاها، إنّها إتمام لما لم يكمله التاريخ"15.استطاع عبد المالك مرتاض في رواية الطوفان أن يكتب رواية تاريخية أمينة للتاريخ بالرغم من بطلها المبتدع وحبكتها المتخيلة إذ حاول أن ينقل تاريخ الجزائر كما هو مع حذف وزيادات مركزا على أحداث ومختزلا لحظات أخرى، بغرض إحياء تاريخ الجزائر وتدوينه في قالب روائي، كون الجنس الروائي أكثر مقروئية وكذلك قصد توثيق الخيط المنطقي بين الماضي والحاضر والمستقبل بغرض توصيل فكرة الثورة إلى الأجيال وترسيخ التحدي وتأصيل الهوية والتواصل مع الذاكرة الجماعية.

الهوامش:

*عبد المالك مرتاض من مواليد 10جانفي 1935بتلمسان، حفظ القرآن وتعلم مبادئ الفقه والنحو في كتّب والده، نال عدة شهادات وعيّن في 1919 في المجمع الثقافي العربي ببيروت، سجّل اسمه في موسوعات عربية وأجنبية، تجاوزت كتبه المطبوعة الأربعين ومن أبرزها معجم موسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية، وكتاب فنون النثر الأدبي في الجزائر وكتاب أدب

المقاومة ومعجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، إلى جانب إبداعاته القصصية والروائية: نار ونور، صوت الكهف والحفر في تجاعيد الذاكرة وثلاثية الجزائر آخر إصدار له (موضوع الدراسة).

ارجع: شريبط أحمد شريبط وصالح ولعة وآخرون:معم أعلام النقد العربي في القرن العشرين، مخبر الأدب العام والمقارن، عنابة، دت، دط، ص238-253.

1. عبد المالك مرتاض: الطوفان رواية في عشق الوطن واللغة،دار هومة،الجزائر،2010،دط،ص22.
2. المصدر نفسه:ص219.
3. نواف أبو ساري: الرواية التاريخية، دار بهاء الدين، 2004، قسنطينة، ص168.
4. بليحيا الطاهر:التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، منشورات الجاحظية، الجزائر، 2000، دط، دت، ص52.
5. رونيه ويليك وأستين دارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات، ط2،بيروت، 1981، ص98.
6. عبد المالك مرتاض: الطوفان، ص65.
7. المصدر نفسه: ص09
8. المصدر نفسه: ص22
9. المصدر نفسه: ص39.
10. المصدر نفسه: ص37
11. المصدر نفسه: ص61-62
12. المصدر نفسه: ص95
13. المصدر نفسه: ص177
14. المصدر نفسه: ص200
15. نضال الشمالي: الرواية والتاريخ،بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2006، ص115.